تمهيد

ما الأدب العربي الحديث؟

يواجه اسم «الأدب العربي الحديث»، الذي يشكل موضوع هذه الدراسة، مشكلة؛ فالكلمات الثلاث التي تكون هذا الاسم لا تعبر بدقة عن المضمون، كما يبدو للوهلة الأولى. وقبل أن نبدأ مناقشة موضوعنا سنقدم تعريفات مختصرة؛ لتحديد نطاق هذا العمل.

أولًا: أنا أشير بكلمة «الحديث» إلى الأدب المكتوب بوجه عام، بعد تعرُّض الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى تأثير واسع من أوروبا الغربية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين الميلاديين. وهذه العملية التي نُوقشت كثيرًا في اللغتين العربية والإنجليزية، كانت عملية تراكمية معقدة. ولأهداف عملية اعتمد تاريخ 1798 (تاريخ غزو نابليون مصرَ) بوصفه نقطة بداية سلسلة من التطورات، وعلى الرغم من أهمية هذا التاريخ بوصفه نقطة بداية معتمدة (وسوف أستخدمه بالمعنى نفسه هنا)، ولكن ليست له صلة بمناطق أخرى من العالم العربي، الذي بقي بعضه بعيدًا عن التأثير الأوروبي من وجهة نظر اجتماعية وأوروبية حتى القرن العشرين، في حين تمتع قليل من البلاد العربية (لبنان أفضل مثال على ذلك) باتصالات واسعة ومميزة مع أوروبا على مدى قرون، قبل أن يطأ جيش الإمبراطور الفرنسي الأراضي المصرية. وكما سنرى في الصفحات المقبلة فإن مسار التطور الأدبي (مثل التطور الاجتماعي والسياسي) في الشرق الأوسط كان بعيدًا عن الانتظام والتواريخ المحددة والواضحة، ولكنه كافٍ، ويمكن أن يكون في معظم الأحيان مضللًا. وعلى كل حال، وكما ستوضح ذلك الصفحاتُ المقبلة أيضًا، وعلى

الرغـم من أن معظم الأدب العربي «الحديث» يظهـر علامات تأثُّر واستعارة مـن التقليد الغربي، ولكنه من المستبعد أن تثمر أي محاولة لفهم تطور الأدب العربي الحديث بعيدًا عن الموروث العربي الكلاسيكي.

لنتحـول الآن مـن «الحديـث» إلى «العربي»، قد يبدو هـذا المصطلح في البدايـة أقـل تعقيـدًا مـن «الأدب العربي»، من المؤكـد أنه «أدب كتـب باللغة العربيـة»، وهذا تعريف جيد ووافٍ لمعظم المادة التي نتعامل معها، ولكن اتسم التاريـخ السياسي للشرق الأوسط في القرنـين الماضيين بحقب من الاستعمار الأوروبي المعادي، وفي بعض الأحيان كان هناك تداخل ثقافي غير واضح، خاصة في بـلاد شمال إفريقيا (وبنسب مختلفة)، وخفت الأدب العربي بتأثير الأدب الفرنسي في بعض الحقب قيد الدراسة هنا، وعلى الرغم من أن هذه الدراسة لا تضم الأدب المكتـوب بالفرنسية، (ولكنه سيُذكر أحيانًا)، ولا يمكن تجاهل ظاهرة الأدب الفرانكفوني، وكثير من الأدباء موضوع دراسة هذا الكتاب كتبوا باللغتـين الفرنسية والعربية، أو تنقلوا أحيانًا بـين اللغتين، وهو توجه له مغزاه السياسـي والأدبي. وشكلـت مثل هذه المعاناة جزءًا مـن المحيط الثقافي العام الذي أنتج أغلب الأدب العربي في شمال إفريقيا خلال معظم القرن العشرين، وتمسـ الحديث عن الأدب «العربي» الحديث مسًّا وثيقًا. وظاهرة أخرى (على الرغـم من أنها غـير واضحة حتى وقت قريـب) هي ظاهـرة الأدباء العرب، الذين عاشوا في الغرب في بعض الأحيان، ويكتبون بالإنجليزية، وأمامهم سوق أكبر من تلك المتوافرة لزملائهم المتحدثين بالعربية.

والمصطلح الثالث «الأدب» يحتاج أيضًا إلى بعض الشرح. يشير المصطلح إلى «الأدب المتخيـل أو الروائـي والقصصـي» بالنسبـة إلى القـارئ الغربـي – الروايـة، والقصة القصـيرة، والفلكلور، والمسرحيـة، والشعر، وما يوازيها

في الثقافات الأخرى. وبالتأكيد سوف نستخدم هذا المصطلح بهذا المعنى في معظم هذه الدراسة. ويجب أن نتذكر أن كلمة «أدب» التي هي الأقرب إلى الأدب تُعدّ مصطلحًا معقدًا يضم إضافة إلى التعبير الأدبي «الثقافة» و«الأخلاق العالية» و«الاحترام» و«الإنسانية»، وتختلف معاييرها في المجال الأدبي تمامًا عن المصطلح الإنجليزي «الأدب»(*). وأيضًا الكتاب الأوائل والقراء لم يلتفتوا إلى اختلاف أنواع الأدب، كما فعل المتأخرون. ولذلك فإن كلمة «الأدب» في حقبة القرون العربية الوسطى كانت تعني كل أنواع الكتابة: التاريخ، والجغرافيا، والسيرة، والفلسفة وما إلى ذلك. وفي هذه الدراسة سنعني «بالأدب» - وفي معظم الأحيان - الأدب المتخيل أو الروائي، ولا يمنع ذلك من الإشارة أحيانًا إلى الأنواع الأدبية الأخرى، وبشكل خاص في الفصل الأول الخلفية، وفي الفصل الثاني الذي يتحدث عن المراحل الأولى للنهضة الأدبية في القرن التاسع عشر.

(*) هناك ملاحظات أخرى عن العلاقة بين هذه المعاني المختلفة موجودة في الصفحات 27-24.

obeikandl.com